مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (23) العدد (16)2001
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research-Arts and Humanities Science Series Vol (23) No (16) 2001

قضية الانتماء الجنسيّ في شعر عنترة

الدكتور عبد الكريم يعقوب*
رولا سلوم **

(قبل للنشر في 2001/8/15)

□ الملخّص □

يدرس البحث قضية الانتماء الجنسي في شعر عنترة، الذي يسلك في عداد أغربة العرب قبل الإسلام.
والشعراء الأغربة ثمار نساء حبشيات ، استقدمن من الحبشة ، وأجبرن على الارتباط بأسيادهن الذين أسروهن في المعارك، نتيجة الغزو والحروب ، التي كان ينتصر فيها العرب على جيرانهم وهذا الارتباط بين السيد وسبيته، لم يكن مباركاً، أو محبذاً لدى العرب القدماء، ولذلك اتسمت نظرة العرب إلى هؤلاء الهجناء ، أو العبيد ، بدونية ملؤها الانتقاص والاحتقار، والإهانة والإذلال.
يشعر عنترة الغراب بهذه النظرة ، فتزيده ألماً وحزناً وعذاباً ؛ لذلك نراه . في شعره . يورد مفردات وصوراً وتشابيه، يضمنها اللون الأسود ، كصورة الغراب الأسحم ، والذبابة ، والنوق السود. ونستشف من خلال هذه الصور إحساس عنترة بفقد الانتماء ، والظلم الذي ألحقه به لونه الأسود ، والذي كان مبعث كره الناس إياه ، واحتقارهم ويظهر ذلك من خلال التعويض ، الذي يلجأ إليه عنترة، محاولاً تحدي واقعه المرير ، المضمخ بعبير الموت، فنراه يستعيض عن عقدة الدونية في جنسه ، ببيض فعاله،ومروءته وفروسيته ، وعظيم مواقفه وصنائعه ؛ ليخفف وطأة الإحساس بفقد الانتماء،وليدفع عن نفسه الشعور بالموات الذي سببه له لونه الأسود .

* أستاذ في قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية.
**طالبة ماجستير في قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية–سورية

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (23) العدد (16)2001

Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research-Arts and Humanities Science Series Vol (23) No (16) 2001

The Question of Ethmic Affiliation in the Poetry of Antara

Dr .A. YacoubB *

Rula Salloum **

(Accepted 15/8/2001)

□ ABSTRACT □

This research tackles the question of ethmic affiliation in the poetry of Antara, who is considered among the strangers in the pre- Islamic period .

The aliens are the fruit of relation between black woman, brought from Eithopia and were compelled to submit to the desires of their masters . This relationship was not a blessed one, and the child was treated with contempt, rejection and despise .

Antara suffered from this"look", he was overagonised . That is why we see him in his poetry bringing many images, similies, which include black colour, as the raven, high black camels We can discern in his feeling of alienation because of his blackness .

Antara 's awarenss of his bllackness led him to search for virtues which might out shadow his physical defect He talkes about the goodness of his deeds, his altruism and his chivalry .

***Professor at Department of Arabic، Faculty of Arts and Humanities، Tishreen University، Lattakia Syria .**

****MA student at Department of Arabic, Faculty of Arts and Humanities,Tishreen University Lattakia,Syria .**

الانتماء قضية أرّقت الجاهليين كثيراً، وأقضّت مضاجعهم فترة طويلة من الزمن، وحين يشعر الإنسانُ أنّهُ مُهمّشٌ في الحياة، منبوذٌ، مكروه فيها، كل من حوله، وما يحيط به، يرفضه، ويلفظه من هذا الوجود، ينتابه حزن شديد عميق ،ويعيش الألم والمرارة بأبعادهما، ولا سيّما الإنسانُ الجاهليُّ الذي عاش في ظل مجتمعٍ يفخر بالانتماء الصريح ويعتز أبناؤه بالنسب الأصيل المنحدر من أرومة عربية أصيلة صافية، ونقيّة، لا تشوبها شائبة، سواء من جهةِ الأب أم الأم.

ولطالما كان النسب عند الجاهلي مدعاةً للفخر، ومدعاة للذم أيضاً، هذا ما يتصل بالبيئة والمجتمع، فماذا عن الحالة النفسية التي يشعر بها ا لإنسان المسلوخ عن أسرته ونسبه، المسلوب الهوية والانتماء ؟؟! وكيف يمكنُ للمسافر المرتحل أن ينتقل من مكان إلى مكان، وهو لا يملك هويةً صحيحة تمكنه من العبور أو المرور إلى حيث يريد أو يطمح ؟! وكيف يمكن للعصفور أن يحلق في الجو من غير جناحين ؟! وأنّى له أن يغّرد، ويشدو وهو سجين قفصهِ ؟!

لقد سُلب الغراب أكثر الأشياء مدعاةً إلى الفخر والاعتزاز، سُلب اسمه، ونسبه، وأرضَه وانتماءَه؛ سُلِب اسمه عندما وصف بالغراب، هذا الطائر المكروه، الذي لم يكن محّبذاً عند العرب، بل كان مثار الشؤم والحزن والانكسار والضَعة سُلب الغراب نسبه عندما رفض والده الاعتراف به وضمَّه إلى أسرته وعشيرته، سُلب انتماءه عندما أصر المجتمع أن يهمشه بعيداً عنه؛ لقد سُلب الشاعر الغراب أغلى ما يملكه الإنسان، ألا وهو اسمه وانتماؤه؛ ولذلك ناضل وجاهدَ محاولاً استعادة هويته المفقودة، تلك الهوّية التي طالما سعى إليها، وطالما تمنى أن يبرزها أمام الملأ، ليقول لهم: هذا اسمي، وهذا نسبي، هذا أبي وهذه أمي، هذه أسرتي وهذه قبيلتي.

احتلت قضية الجنس . اللون الأسود . حيزاً واسعاً وخطيراً ً في حياة الأغربة، رافقتهم منذ ولادتهم حتى نشأتهم واستمرت معهم إلى شيخوختهم، كانت أشبه بعلامةٍ فارقة، لا تزول ولا تُمحى، وكيف تزول وهي مورّثة؟! ورثها الغراب عن أمّه الحبشية السوداء،الوضيعة، الذليلة، السبيّة ؛ تلك الأم التي لم يْكفها أن تحمل معها لونها الأسود البغيض، وإنما رافقتها سلسلة من المكروهات التي زادت النظرة إليها سوءاً ودونيّة.

فالعرب لم يألفوا اللون الأسود، بل كان يحمل جملة من المترادفات في أذهانهم، ترافق السواد مع البياض ليحتلاّ مساحةً كبيرة عند العرب، لقد رأى العرب كغيرهم من الشعوب صفة البياض . هذه الصفة الجسمية . رمزاً معنويّاً لصفاتِ النقاء والطُهر والشرف والخير،"فمثلت الجوانب المضيئة في النفس البشرية ، في مقابل النواحي المظلمة منها"[1]، ويرد د.النويهي نزعة العرب إلى تفضيل اللّون الأبيض على اللّون الأسود، إلى مظاهر كونية تتعلق ببداية الخلق، وما اعتمل داخل الإنسان البدائي من خوفٍ ورهبةٍ لظلمة الليل، وما تُخفيه من أهوال وشدائد ومخاوف، ويقول: "و لعلّ أصل هذه النزعة شبه العالمية إلى تقدير البياض، هو خَشْية الإنسان البدائي من ظلمة الليل، وما تخفيه من أخطار حقيقية؛ كالوحوش المؤذية والعثرات المردية والأعداء المختفين أو متوهمّة كالأرواح الشريرة والآلهة الغاضبة وشعوره بمزيد من الطمأنينة في النهار المنير"[2]، كما مثل الليل عند العرب الخوف والموت بأشكاله المختلفة، على حين جسّد النهار بضيائه ونوره الطمأنينة والسكينة والأمان، ويرى د.فاروق ْإسليم "ارتباط اللون الأسود عند الجاهلي بالعبودية وبالاحتلال الحبشي المباشر لبعض أرجاء الجزيرة العربية"[3] ، ومن هنا تولّد كره الجاهلي لأصحاب البشرة السوداء والنفور من لونهم، لِما طبعته في نفسه من رموز الذل والهوان والضعف، ثم إن وجود اللون الأبيض في البيئة البدوية الصحراوية كان قّلما يتواجد ويحضر، إذ كان نادراً قليلاً، بحكم البيئة التي عاشها العرب قديماً، وتنقُلهم في الصحراء تحت حر الهاجرة ولهيبها، مما جعل بشرتهم تميل إلى اللون الداكن لا الفاتح، وتتلون به، ومن هنا عُدّ اللون الأبيض . النادر لديهم . مقياساً لجمال المرأة المثالي في نظرهم.

---

[1] الشعر الجاهلي ج2 ص 622.

[2] الشعر الجاهلي ج2 ص 622

[3] الانتماء في الشعر الجاهلي ص191.

والغرابُ . كما تخبرُنا المعاجم وكتبُ الأدب . طائرٌ أسود أكبر حجماً من الحمام، ويُجمع على غِربان وأغربة يتشاءمون به، يُضرَبُ به المثل في السواد، والبعد، والبكور، والحذر فيُقال: " ‹ بكرتْ بكورَ الغرابِ › و‹ دون هذا شيبُ الغراب › و‹ فلانٌ أحذرُ من الغرابِ › ويُقال أيضاً: ‹ أرضٌ لا يطيرُ غرابُها ›؛ أي مُخصبة، ويُقال : طار غرابُه: أي شابَ، وأغربةُ العرب: سُودانُهم شُبّهوا بالأغربة في لونهِم، والغِرْبيب: ج غرابيب: الشديد السواد "[4]، ومما قيل عن الغراب أيضاً: "‹ وأنتم خفافٌ مثلُ أجنحةِ الغُربِ › و‹ فلانٌ أبصُر من غراب ›، و‹ أزهى من غُراب›، و‹ أصفى عيشاً من غراب ›، و‹ أشدّ سواداً من غراب ›، و‹ أشأم من غراب ›، و‹ أفسَقُ من غراب › " [5] ، وورد في (تاج العروس) أيضاً: " ‹‹ أخدع من غراب ›› و‹‹ أعزّ من الغراب الأعصم ›› كنايةً عن ندرتهِ"[6]. وفي الحديث أنه غيَّر اسم غراب لما فيه من البعد، ولأنه من أخبث الطيور، وقد شبّهوا الإنسان المُبطئ في حاجته وعدم عودته بسرعة بـ (غراب نوح)، فقالوا : "لا يرجع فلانٌ حتى يرجع غرابُ نوح "[7].

و الأمثلة التي أُطلقت على طائر الغراب، تجعلنا نستشف تلك الروابط التي جمعت بينه وبين الشعراء الأغربة، فصفة السواد كانت العامل الأكبر والقاسم المشترك بينهما، فالغراب كطائرٍ أوجده الله على تلك الصورة من بين الطيور وكذلك الشعراء الأغربة، فقد وُلِدوا من أُمهاتٍ حبشيّات، سُوداوات البشرة، أُجبرْنَ على الارتباط بأسيادهنّ الذين أسروهنّ في المعارك أو الغارات والغزوات، وارتباطُ السيّد بسبيّتهِ أدّى إلى أن استُولِد هؤلاء الهجناء السود، فورثوا سوادَ البشرة، ووضاعة النسب من أمهاتهم أولاً، والحرمان والهوان من آبائهم الذين رفضوا الاعتراف بهم، وضمهم إلى نسبهم ورعايتهم ثانياً، إذ وجد السيد أن الاعتراف بأولاد الإماء منه نقيصةٌ، وعيبٌ، وعارٌ.

وعنترة بن شداد العبسي واحد من الشعراء الأغربة، فهو ثمرة امرأةٍ حبشيّة سوداء شانها سواد لونها، فغَدتْ سبَّةً بين العرب، وانتقل هذا الشعور، وتلك النظرة الوضيعة إلى أولادها من بعدها، فلم يسلموا من هذا التقليل والانتقاص، رغم انتسابهم إلى سادة أحرار من جهة آبائهم، بل بقيت النظرةُ نفسُها متجسِّدة في رؤية العربيّ الصريح إلى العبد الحبشيّ نظرة غير الأسود إلى الأسود، ونظرة الأعلى إلى الأدنى، ونظرة الغني إلى الفقير، ونظرة الحر إلى السجين.

لقد تفاقم الشعورُ بالنقص والعجز لدى الإنسان المحمّل بأسمى المشاعر والقيم، وبأرقى العواطف وأنبلها، عنترة بن شدّاد العبسيّ، الشاعر الفارس ،الذي لا يهوله أمر، ولايُضعفه خطر، ولا تثني عزيمته محنة، يظهرُ إحساسهُ بفقدان انتمائهِ . الجنسيّ . عندما يذكر لونه الأسود، متمثلاً فيه عبوديته وظلمه وقهره، عندما يذكر والدته الحبشية زبيبة[8] ويذكر أخواله المنتمين إلى أرومة السودان، "وقد ورث ذلك السواد من أمهِ زبيبة إذ كانت أمةً حبشيّة وبسبب هذا السواد عدَّهُ القدماء من أغربة العرب "[9]. وقيل: "أمُّه حبشيَّة اسمها زبيبة سرى إليه السواد منها"[10]، يقول عنترة:[11]

1 . وأنا المُجرِّبُ في المَوَاطِن كُلِّها مِنْ آلِ عَبْسٍ مَنْصِبي وفَعَالي

2 . منهم أبي حقاً فهُم لي والِدٌ والأمُّ من حامٍ فَهُم أخْوالي

إنه الفارس المقدام، هذا ما يؤكّده لنا بقوله: ‹‹ وأنا المجرب في المواطن كلها ››، فهو الشجاع الذي لا يُشَقُّ له غبار ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكرَ فروسيته وإقدامه، تشهدُ على مواقفه البطولية قبيلةُ عبس، فله فيها أيامٌ بيضاء لا يمكن لهم نكرانها، وكم من مرةٍ حمى فيها قبيلته عَبْساً، وردَّ عنها أعداءها، وهو بدفاعهِ عن عبس، إنما يدافع عن أبيه، فهو منهم، ينتمي

---

[4] لسان العرب ابن منظور مادة (غَربَ) ص 969.

[5] لسان العرب ابن منظور مادة (غَربَ) ص 969.

[6] تاج العروس للزبيدي ج3 ص466-476.

[7] موسوعة أساطير العرب د. محمد عجينة ج1 ص324.

[8] الأعلام الزركلي ج5 ص 264. وانظر المحبَّر ابن حبيب ص 307. والأغاني للأصفهاني ج8 ص 237.

[9] شرح المعلقات السبع الزوزني ص 260.

[10] معجم الأعلام بسام عبد الوهاب الجابي ص 565.

[11] ديوان عنترة المولوي ص 336.

إليهم، ويفخر بانتمائه إليهم،أوَ ليسوا مثار فخرٍ بين القبائل ؟!، أليست عبس واحدةً من جمرات العرب[12] إن والده ينتمي إلى عبس، ولذلك تغدو قبيلة عبس بأسرها والداً له (فهم لي والدٌ)، إنه يصر على انتمائه لقبيلته، وهو مقابل ذلك، يفخر بأمه . زبيبة . وبأخواله الحاميين الذي ينتسبون إلى السودان، وهو إذ يفخر بأمه، فإنه يُضمِّن فخره بها فخراً بلونه وبجنسه، فهو لا يجد في أمه وأخواله نقيصة أو عيباً أو عاراً له، بل على العكس يقابل عنترة في هذا البيت من الشعر: **(منهم أبي حقاً فهم لي والدٌ والأم من حامٍ فهم أخوالي)**

بين شطري البيت، فيجعل الشطر الأول لأبيه وقبيلته عبس، ثم يجعل الشطر الثاني لأمه وأخواله، إنه يفخر بانتسابه إلى أهل أمه.

وهو في موضعٍ آخر يمجّد انتماءه لأمه السوداء، ويمتدحُ العرق الحامي، غير آبهٍ بتقاليد مجتمعه وقيمهِ، يقول:[13]

1 . أنا ابنُ سَوْداءِ الجَبينِ كأنَّها ضَبُعٌ تَرَعْرَعَ في رُسُومِ المنزِلِ

2 . السَّاقُ منها مِثْلُ سَاقِ نَعَامَةٍ والشَّعْرُ منها مِثْلُ حَبِّ الفُلْفُلِ

3 . والثَّغْرُ من تحتِ اللِّثامِ كأنَّهُ بَرْقٌ تلألأ في الظّلامِ المُسْدَلِ

إنه يفخر ببنوته لامرأةٍ سوداء حبشية، تشبه الضبع سواداً، وتُشبه ساقاها ساقي النعامة، وأما شعرها فهو مثل حب الفلفل، والصورةُ الأجمل هي صورة ثغرها الذي يغدو برقاً متلألئاً مضيئاً "الأسنان"، يلمع وسْط الظلام الحالك السواد "وجهها". لقد اجتمعت صفات غير مألوفة إلى جانب سواد البشرة في والدتهِ، ومع ذلك فهو يفتخر بها، ويخص نفسه بقوله "أنا".

و ينتقي عنترة . كعادته . أجمل ما هو موجودٌ في بيئته الطبيعية، ليضفيه على موصوفه، فيصل به درجة الكمال كما أننا نستشف من تشبيه والدته الحبشية بالضبع مقدار حبه لهذا الحيوان وارتباطه به، فأمه قريبة محبّبة لديه، وكذلك تغدو الضبع، هذا الحيوان المتوحش. يُكثِّف عنترة الصور في شعرهِ، ويُداخُلها بعضها ببعض، حتى لنشعر أننا نرى بأعيننا حقيقةً لا تخيلاً، أو توهماً. يغالبُ عنترة، من خلال فخره بأمه ودفاعه عن جنسها وسوادها، إحساس الموت القاتم الذي عايشه، نتيجة تلمُّسه لسواده، وانتقاص الناس له، ويغدو حبه للضبع، هذا الحيوان المتوحش، حبّاً لكلّ شيء غير مألوف، كاللون الأسود تماماً، الذي لم يكن مألوفاً، أو محبّباً في نفوس العرب وأذهانهم.

وإذا كان عنترة قد فخر بأمه وبأخواله، وبانتسابه إليهم، فإنه لا يستطيع، في مواضعَ أخرى من شعره، أن يتناسى نظرة الناس إلى أمه، وإلى جنسهِ، إذ "يبقى لونه الأسود شاهداً على عبوديته واعتلال نسبه، وتبقى أمه زبيبة أمةً لا حرّةً، أمَّ ولد لا أمّ بنين، سوداء لا بيضاء، حبشية لا عربية، حجّةً للناس على أنه هجين، أخواله الزنوج، فمن أين له أن يمحو سواد لونه، والعرب لا يتسامحون في النسب وكرم الأمومة والخؤولة، فقد جعلوا له ألقاباً تذكّره بسواده وأمهِ، فهو الغراب، وأسودُ بني عبس، وابن السوداء، وابن زبيبة"[14].

يقول:[15]

. إنيّ امرؤٌ من خيرِ عَبْسٍ مَنْصِباً شَطْري وأحمي سَائِرِي بالمُنْصُلِ

يكرر عنترة في شعره أسلوب التأكيد (إني)، وكأنه يشعر في أعماقه انتقاص الناس منه، وتقليلهم لشأنه، لذا يعمد إلى أسلوب التأكيد، فهو (امرؤٌ من خير عبْسٍ منصباً)، أليستْ فعاله شاهدةً على ذلك ؟! ألا ينتمي إلى سيد كريم حر أليست قبيلته من أشد القبائل العربية وأعظمها؟! ألا يحق له أن يفخر بقبيلته وهو الإنسانٌ الذي يصر على الانتماء إليها ويدافع

---

[12] ديوان عنترة المولوي ص 3–4.

[13] ديوان عنترة تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي ص 251– 252.(ابن سوداء الجبين : نسبةً إلى أمه، أو قد يكون قصد بسوداء الجبين المعركة التي يعقبها من سواد الحداد على التورية – ضبع: أنثى من الوحوش مذكرها ضبعان ولكن الشاعر استخدمها مذكرةً – نعامة: طير كبير دقيقة الساقين طويلتهما – حب الفلفل: أي مجعد – اللثام: ما يحجب به الفم عند الشفتين– تلألأ: أضاء – المسدل: المرخى).

[14] الشعراء الفرسان بطرس البستاني ص167.

[15] ديوان عنترة تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي ص 78. وانظر : الأغاني للأصفهاني ج8 ص 241 والمعاني الكبير ابن قتيبة ج1 ص 507. وحماسة الظرفاء للزوزني ج2 ص 221. (المنصب: الاصل والحسب والأرومة . أحمي: أحفظ وأصون . المنصل: السيف).

عنها، ويحمي ذمارها، ويصون عرضها وشرفها ؟!، إنه يقسِّم جسده إلى شطرين؛ شطرٌ لأبيه، وشطرٌ لأمهِ، وإذا كان شطره الأول مثال المنعة، والشرف والفروسية، فإنه لا يتوانى عن حماية شطره الثاني، نصفه الثاني، الذي يتمثل بوالدته، إن ما يتمتع به عنترة كفيلٌ أن يحمي ما نقص من شطره الثاني، إنه بقوة عزمه، وببطولته قادرٌ على ردّ الأذى عن نسبه لأمه، كما أن فعاله العظيمة قادرة على أن تعوضه ما نقص وضعف من نصفه الثاني، لقد أحسنَ عنترة وأجاد في قوله، حتى قيل في شعره هذا: "من الأشعار المُحْكَمَة، المُتْقَنَة، المُستَوفاة المعاني، الحَسَنة الوصف، السَّلْسَةِ الألفاظ، التي قد خرجت خروج النثر سهولةً وانتظاماً، فلا استكراه في قوافيها، ولا تكلُّفَ في معانيها، ولاعييّ لأصحابها"[16].

ولعل عبودية عنترة كانت الدافعَ الرئيس إلى قوله الشعر، وإبداعه فيه، فمعلقته الرائعة كانت ردّة فعلٍ على سُبَّةٍ عُيِّر بها بعدم قدرته على قول الشعر "إذ سابَّه رجلُ من بني عبس وذكر سواده وأمه وإخوته"[17]، فكان أن جاء بقصيدةٍ من غرر الشعر العربي في صياغتها الفنية، وفيما انطوت عليه من معاني القوة والشجاعة، والحب والرقة والعذوبة،ومعاني الألم والعذاب والمرارة والموت.

أثّرت العبودية في نفسية عنترة، وكان التأثير صراعاً بين ضدين: الحياة، والموت؛ الموت مُجسداً في لونه الأسود الموشوم به، والحياةُ ممثلة في التحرر من هذه النظرة القاتلة المميتة، وهو لا يستطيع أن يتخلى عن لونه، عن دمهِ الذي يسري في عروقه ونبضه، تماماً كما لا يستطيع جسده التعري من لونه، ولكنه يستطيع أن يغير ما علق في أذهان الناس من احتقار لهذا اللون، وانتقاصٍ له، يستطيع أن يثبت وجوده، ويصل إلى عين حريته، التي طالما سعى إليها فهي محرّر قيده، وأسره. وإذا كان اللون الأسود هو ما مُيّز به العبد عن غيره، فإن القيد والسجن ارتبطا أيضاً كاللون في نظرة الناس الدونية إلى العبيد؛ ولذلك كانت الحرية عند عنترة الشغل الشاغل، فهي وسيلته إلى تحقيق وجوده، وإنسانيته الممتهنة. لا يتوانى عنترة في شعره يذكر سواده، يقول:[18]

1 . أنا الهجينُ عنترهْ كلُّ امرئٍ يحمي حِرَهْ

2 . أسودَهُ وأحْمَرهْ والشَّعَرَاتِ المُشْعَرَهْ

الوارداتِ مِشْفَرَهْ

إنه يذكر سواده واختلاط نسبه (أنا الهجين عنتره)، يخص عنترة نفسهُ بقوله: (أنا)، يستخدم ضمير المفرد المتكلِّم، ليُبيّن توحُّده في الألم والحزن، إنهُ صريحٌ في التعبير عن مكنوناتِ نفسهِ، لا يلجأ إلى ضمير الغائب، بل يحدد لنا من هو ذاك الإنسان المعذّب في حياته، يُبيِّن لنا من هو ذاك الإنسان المنصهر في آلامه وعذاباته، وهو لا يكتفي بإيراد كلمة (أنا) ولكنه يفصّل أكثر ليقول: (أنا الهجينُ..) وكم تحمل هذه الكلمة "الهجين" من مرارةٍ وألمٍ في نفسه؟ يقولها ونفسه تقطر حزناً وألماً، فهو هجين، وليس بصريح حرّ، إنّ نسبه مشوبٌ مختلطٌ، وليس بصافٍ، أو نقي، لَكَمْ عذبه هذا الأمر، ولكم عانى الألم منه، ولعل معاناته تكمن في نظرة العرب إلى سواده، فلولا انتقاصُ العرب من الهجناء، لما تولد في داخل عنترة هذا الشعور المرير، ولا يكتفي عنترة بتحديده (أنا الهجين) بل يفصل أكثر حتى يضع يده على الجرح، فيقول: (أنا الهجين عنتره)، يذكر اسمه، ليزيد من وقع المأساة وروعتها، إن عنترة يصل إلى ذروة المعاناة في قوله هذا، فهو يستشعر جرحه، ويتلمسه، وهذا الجرح حقيقةٌ لا وهمٌ، والحقيقةُ وقعها صعبٌ دائماً، وهو لا يلبث أن يواسي نفسه صحيحٌ أنه هجينٌ، ولكنهُ إنسانٌ قبل كل شيء، وهو موكولٌ بحماية أهلهِ ونسائه، وإنسانية عنترة تكبر وتمتد في نظرنا إذ إنها لا تقف عند حدٍّ معينٍ، فهي إنسانيةٌ للناس جمعاء، واجبهُ حماية النساء جمعاء، سواء بيْضاً كنَّ أم سوداً، (أسودَهْ وأحمره)، فالأحمر كما يقول أبو عبيدة: "كل من غلب عليه البياض، وأسودهم كل من غلب عليه الأدمة "[19]، ومثلما يرى عنترة واجبه في

---

[16] عيار الشعر ابن طباطبا العلوي ص 82-87-88.

[17] ديوان عنترة محمد سعيد المولوي ص 181. وانظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات الأنباري ص 293.

[18] ديوان عنترة المولوي ص 329. وانظر الأغاني ج8 ص 239. والمعاني الكبير الدينوري ج1 ص 507.

[19] ديوان عنترة محمد سعيد المولوي ص 330.

حماية النساء جميعاً، من غير تمييز بين جنسٍ وآخر، فإن خُلُقَهُ جعله يرى ضرورة تقديم حماية النساء على حماية نفسهِ، (والشَّعَرات المُشْعَره)، ونتبيَّن الأمر نفسه في قوله:[20]

. إني أنا عنترة الهجيْن فجَّ الأُنانِ قد عَلا الأنينْ

إذ نستشف مقدار النشوةِ التي يشعر بها عنترة في هذا البيت، فهو على خلاف ما سبق، يجعل هُجْنَتَه في قوله: (إني أنا عنترة الهجين) مّدْعاة فخرٍ ، وليس مدعاة ذمٍ وهجاء، إنه يفخر بكونه هجيناً، فالهجين يكون أقوى وأشد صلابةً وتجلُّداً ولا سيما إذا كان ولد الرجل من الغرائب[21]، إن كونه مولوداً من أمةٍ حبشية سوداء، جعل منه رجلاً قوي البنية، شديد البأس، صبوراً، جَلْداً، يفوق الذي يولد من نساء أهله قوةً وصلابةً كما كانوا يرون ، وهذا رمزي تادرس يشير إلى شيء من ذلك، حين يذهب إلى أن الأحباش يمتازون بقوة البنية والصبر على المكاره، واحتمال الخطوب، وأفرادهم أذكياء وذوو احتيال في مناهضة الأعداء عجيب، وبسالة في القتال أعجب[22]، لقد استطاع عنترة بتكوينه الجسدي وبنيته القوية، أن يتغلب على عدوه، ويهزمه شر هزيمة في موضع (فجّ الأنان)، حتى إن أنين الجرحى بدا مسموعاً لكثرة القتلى والجرحى، ولولا اكتسابه صفات البنية القوية من والدته الحبشية، لما تأتى له التفوق على الآخرين، والغلبة على أعدائه، يجعل عنترة من لونه، ومن نسبه وسيلة إلى تحقيق وجوده، وحياته، ونصره، يرفض الاستسلام، ويتعالى على الواقع، إنه يريد أن يخلق عالمه بنفسه، يريد أن يحقق رؤيته بذاته، بعيداً عن أهواء الناس وعما يعتقدون، وإذا كانت رؤية العرب للهجين والعبد قد اتصفت بالسلبية، وطبعت بالدونية، وهي بذلك لا تولِّد إلا الحزن والألم والموت، فإنه يحرر نفسه منها، ولا يقبل بها، بل يتخذ طريقاً له خاصاً، يعبر به زورقه بأمانٍ وسلامٍ.

لقد رأى عنترة في هجنته وسواد لونه، عكس ما رأى أهله وقبيلته ومجتمعه، كانت لغته مغايرة للغتهم، حينما جعل من هذه النقيصة . اللون الأسود . مَدْعاةً للفخر والاعتداد، وكأنه يحرر نفسه من عبودية المجتمع الذي أطَّره بها، وقوقعه في داخلها، لقد رأى في سواد بشرته ما لم يستطع الآخرون أن يروه فيها،استطاع أن يحيل القبح جمالاً،والعدم وجوداً وما فعل عنترة ذلك كله إلا رغبة في التعبير عن حبه للحياة وتمسكه بها، فهو يرفض الموت، ويرفض العبودية؛ ولذلك يرى عين حريته، في تحرره من عبوديته، التي تعني لدى الآخرين موته.

إن أسس نفسية عنترة، تكمن في عبوديته وحبه؛ العبودية مُمثَّلة بلونهِ، "ولونه الذي كان له أكبر الأثر في بناء شخصيته"[23]، كان سعيه سعياً حثيثاً لنيل حريته، وللتخلص من ربقة العبودية التي رافقته زمناً طويلاً ممضّاً، ويبدو أن نظرة الناس تبقى هي نفسها، لا تتغير، مهما أبلى عنترة من فروسية وشجاعة ونجابة، نلمح ذلك في قول (قيس بن زهير) . سيد عبس . الذي ساءَه ما أبداه عنترة من شجاعة، وما تمثله من فروسية، ورأى في ذلك ما يمسُّ زعامته في القبيلة، فقال: "واللهِ ما حمى الناس إلا ابن السوداء"[24]، وعبارة (ابن السوداء) تحمل بين طيّاتها انكساراً عظيماً أنْ يُعيَّر الإنسان بأمه أولاً، وبصفتها (سوادها) ثانياً، فهذا أبلغ ما وصلت إليه العرب من تقذيعٍ وتجريحٍ وإيلام، وكأن مابذله عنترة في سبيل إثبات وجوده وإنسانيته ذرّات غبارٍ، تذروها الرياحُ، وتعبث بها، لتفرقها، وتشتتها، ومهما كان وقع هذه الكلمة في نفس عنترة، وإحساسه فيها برائحة الاحتقار والتذكير بالأصل الوضيع، فإنه ينتفض متحدياً صارخاً معبراً بفروسيته وأفعاله المجيدة، وخصاله الحميدة، ما يغطي سواد الأم ووضاعة النسب، يقول:[25]

---

[20] ديوان عنترة محمد سعيد المولوي ص 326. (فج الأُنان: موضع من وراء الطائف قبل نخب الوادي سمي أناناً لكثرة أنين الجرحى فيه).

[21] ديوان عنترة محمد سعيد المولوي ص 326.

[22] الحبشة حسن محمد جوهر ص 59.

[23] الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي د.عفيف عبد الرحمن ص 497.

[24] ديوان عنترة المولوي ص 43. وانظر الأغاني للأصفهاني ج8 ص 241 والشعراء الفرسان بطرس البستاني ص 168.

[25] ديوان عنترة تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي ص 251. (همتي : إرادتي . الثريا: مجموعة نجوم في السماء . السماك الأعزل والرامح نجمان نيّران – أنكرت : جحدت ورفضت– نسبتي: أي إلى والده– يقر لي: يعترف بذلك– الذابل: طرف الرمح المدبب– مهندي: سيفي– نلت: حزت– القرابة: آصرة الدم والنسب– العديدالأجزل: الكثير الوافر).

1 . إنْ كُنتُ في عَدَدِ العَبيدِ فهِمَّتي فوقَ الثُّريا والسِّماكِ الأعْزَلِ
2 . أو أنكرتْ فُرْسانُ عَبْسٍ نِسْبَتي فَسِنَانُ رمْحي والحُسامُ يُقرِّلي
3. وبذَابِلِي ومُهنَّدي نِلْتُ العُلا لا بالقرابَةِ والعَدِيدِ الأجْزَلِ

ويقول في مشهد آخر : [26]

1 . للهِ درُّ بَنِي عبْسٍ لقد نَسَلُوا من الأَكَارِمِ ما قد تَنْسِلُ العربُ
2 . لَئِن يعيبوا سَوَادي فهو لي نَسبٌ يومَ النِّزَال إذا ما فَاتَنِي النَّسَبُ

ويقول أيضا:[27]

1 . وإنْ يعيبُوا سَوَاداً قد كُسيتُ بهِ فالدُّرُ يَسْتُرهُ ثَوْبٌ من الصَّدَفِ

تبدو في أبيات عنترة ثورة مضطرمة على التفرقة العنصرية التي يلاقيها بسبب سواد لونه، وتقف فعاله . دوماً . في وجهِ من ينتقص من نسبه أو انتمائهِ، ويبدو لونه الأسود رائعاً، عندما يجعله عنترة كالصدف، وقد احتوت على الدرر الثمينة الغالية، كذلك هي نفسه التي كسيت بالسواد.

ونراه . في موضعٍ آخر . بمرارة قاسية يعترفُ بعبوديته، رمز قيده وظلمه وقهره، وطريق موته، يقول:[28]

. المالُ مالكُمُ والعبدُ عبدكمُ فهلْ عذابُكِ عني اليومَ مصروفُ

هو لا يملك من نفسهِ شيئاً، كل ما يملك ملكُ غيره، ملكُ أسرته (المالُ مالكُمُ والعبد عبدكُمُ)، يصرِّحُ عنترة في هذا البيت بأنه عبدٌ، ضعيفٌ، لا حول له ولا قوة، ولذلك فهو لا يملك أمر نفسه، وليس باستطاعته أن يحكم زمام أموره أليس هو العبد الوضيع المحكومٌ بالقيد والعمل المرهق الشاق وخدمة القبيلة ؟؟ أليس هو العبد الأسود الوضيع النسب والشأن ؟! أليس هو العبد المسلوب الإرادة والحرية؟! إنه كذلك، (فالعبد عبدكم)، إنه لا يملكُ . مما يجب أن يملك . شيئاً، فهو وما يملكه من جسدٍ أسودَ ذميم، ومن نفس وروح، ومن مالٍ مُلْك أسرتهِ وقبيلته، لذلك يصرخ: لم هذا العذاب؟ ولم هذا الضرب الذي أدمى جسدي وقرَّحه ؟!

يتساءل عنترة مستنكراً على زوجةِ أبيه تحرشها به، بغية الإيقاع بينه وبين أبيه، ألا يكفيه ما يعانيه من سواد الجسد والروح، ألا يكفيه سواد بشرته ليدمغَ قلبه بسوادٍ أشمل يلفُّ النفس ويغلِّفها، إنه العبدُ المملوك، الراعي والخادم والقائم بشؤون قبيلته الوضيعة، العبد الهجين المحروم النسب والانتماء، العبد المتشح بسواد الحزن والألمِ والعذاب، إن تقديم عنترة نفسه بهذه الصورة وجعلها ملكاً لقبيلته، يوحي بتشظي أعماقه وانكسارها، لقد تحطمت نفسه وتشظّت فغدت نفوساً وأجساداً ممزقةً، تكسرت المرآة في أعماقه، وتشوهت الصورة، فمن ذا يلملم أجزاءها المبعثرة، ويعيد تركيبها من جديد ؟! من ذا يجلو غبار الزمن العالقِ ؟! من ذا يعيد تركيب أوصاله ؟! إنه عنترة لا شك، هو من سيتحدى الموت، ويبدأ خلق نفسه من جديد، بعيداً عن اليأس والحزن، سيُلملمُ عنترة أجزاء روحه المبعثرة، بفعالهِ البيض وأخلاقه الحميدة، يبيض سواد بشرته في إقدامه وبسالته، وفي مروءته وفروسيته، فيذوب السواد، ويندمجُ بأنين الحرب

ونحن نتلمّسُ شعور عنترة بسواده، من خلال إضفائه صفة اللون على موجودات بيئته، وكأنها تذكره بنفسه، وتحسِّسهُ بضرورة عدم النسيان، إنه لا يفتأ ينهض من ثقل الشعور بدونيته التي فرضها سواد لونهِ، حتى يتذكرها من خلال المحسوسات الكائنة في بيئته البدوية، يقول:[29]

---

[26] ديوان عنترة تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي ص 118–119.(لله در: أي عمل ، وكأنه شبه بالدر الذي يكون من ذوات الدر، ويقولون في الشتم : لا در دره أي لا كثر خيره– ما قد تنسل العرب: أراد قليلا ما تنسل – نسب: أرومة وأصل– النزال: القتال– فاته: لم ينله).

[27] ديوان عنترة تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي ص217. (كسيت به : خلقت به – الدر: الجوهر– الصدف : المحار في داخله الدرر).

[28] ديوان عنترة محمد سعيد المولوي ص 270.(وقوله المال مالكم والعبد عبدكم، يخبر عن نفسه ويعترف لأبيه بالعبودية، لأنه كان ابن أمة، وقال هذا قبل أن يدعيه أبوه ويعتقه ويلحقه بنسبه).

[29] ديوان عنترة المولوي ص 188– 193 .انظر الحيوان للجاحظ ج3 ص 425. وشرح المعلقات السبع للزوزني ص 165.

1 . ما راعَني إلاَّ حَمُولَةُ أهلِها وسْطَ الدِّيارِ تسَفُّ حَبَّ الخمِخِمِ

2 . فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبةً سُوْداً كخافيةِ الغُرابِ الأسْحَمِ

إنه يستذكر ما في ديار محبوبته بعد رحيلها عنه،ومغادرتها إيّاها، ما وقعت عليه عينه أثناء رحيلها، هو اثنتان وأربعون ناقةً حلوبةً، هذه النُوق كانت سوداءَ كلون الغراب الأسْحم، الشديد السواد، إنها تذكره بسواده، وليس غريباً أن يربط الشاعر بينها وبينه، من ناحية اللون؛ ذلك لأن الموقف الذي استذكر فيه الشاعر تلك النوق السود، هو موقف رحيل، رحيل المحبوبة عبلة عن الديار، وموقف الرحيل لا يخلف غير اللوعة والحزن والأسى، لقد تضافرت عوامل كثيرة في هذه الصورة؛ بين نفسيةٍ، وأسطوريةٍ، وطبيعيّة، فالغرابً وما يوحي به لونه الأسود، من حزن وألم وانكسار والليل وما يوحي به من ظلمةٍ وخوفٍ وقلقٍ وموتٍ وتلاشٍ، ثم ما يوحي به طائر الغراب من شؤمٍ دفين في تصور العرب ومعتقدهم القديم، وما تشي به كلمة غراب من غربةٍ وفُرقة واغتراب وغريب، هذه المدلولات مجتمعةً قامت بفعل الحتّ المبرّح، لقد جرّدت ذات الشاعر . عنترة . وعرَّتها من الداخل، لامستْ شغاف القلب والروح، ألا يكفيهِ ارتحالُ المحبوبة عنه لتمثل تلك الصورة الجافية، القاحلة، الخاوية من نقطة ارتواء تعيد إليه الحياة، إحساسُ مطبقٌ بالموت هو ما يعتملُ في ذات عنترة، شعورٌ كاملٌ بالهزيمة والانكسار، نعم انكسار الذات على نفسها وتشظيها.

ذكّره الغرابُ بمأساته، ذكره بانتمائهِ، أعاده إلى ذكرياته الأُوَل الراسخة في وجدانه، وتلك الذكريات الطفولية التي عاشها عنترة منذ ولادته، كانت مطبوعة موشُومةً بعذاباتِ معاناتهِ، ولعلّ أشدَّ ما يُطبَعُ في ذاكرة المرء، هي ذكرياته الأولى ، الذكريات البكر، فهي كالوشم، وكالخط الذي يرسم على الصخر، لا تزول آثارهُ بمرور الزمن،وإن كانت باهتةً تبقى علامات الكتابةً، كذلك الذاكرة لا تعود نقيةً صافيةً بعد أن ترسختْ فيها صور من الذكريات، ولا سيما إذا كانت الذكريات مؤثِّرة، بالغة التأثير، فإنها تترسَّخُ وتعْلقُ فيها.

وهذه حالُ عنترة، لقد أدْمت الذكريات المؤلمة ذاكرته، ولذلك تظهر صورة النوق السود الشبيهة بالغراب الأسحم، من الصور التي تلقى تجاوباً وذات عنترة، إنها صورة مؤلمة، أن يجترَّ المرء مأساته في حياته بأكملها، إن صورة الغراب الأسحم قد ترسخت في ميراثه الذهني، وعلقت به منذ القديم القديم؛ ولذلك رأينا عنترة أول ما تبادرإلى ذهنه، أن يشبّه تلك النوق السود بصورة الغراب الأسحم الشديد السواد، فهو يختار الصورة المثال، الأنموذج، للتعبير عن مكنونات نفسه وصدى أنفاسه.

كذلك نلحظُ عنترة يعقد القرينة بين ظلام الليل ولحظة البيْن، والآلام النفسية المتمثلة في مشاهد الفراق وصورة الوداع ويتداخل اللون الأسود في هذه الصور ليزيدها تعقيداً في نفس عنترة، فاللون الأسود رمزُ عبوديته، ورمز غموضه لأنه خُلِقَ على هذا النحو، ومشهد الليل كذلك هو رمزٌ للسواد والغموض، ومؤشرٌ من مؤشرات المجهول، يقول عنترة:[30]

. إن كُنْتِ أزْمَعْتِ الفِرَاقَ فإنَّما زُمَّتْ رِكَابُكُمْ بلَيْلٍ مُظْلِمِ

لقد كان السواد عند عنترة "رمزاً لمزيد من غموض ذلك المجهول الذي يخشاه ويترقبه، ويبدو إزاءه أشدّ اغتراباً وأكثر فزعاً"[31] ولا غرابة في أن يتخذ اللون الأسود هذا المدلول؛ لأنه . منذ الأزل . كان رمزاً لإيحاءات الخوف والموت.

(ما راعني: أي ما أفزعني– والحمولة: الإبل يحمل عليها المتاع– تسف: تأكل– الخمخم: تأكلها الإبل لها حب أسود– ويقال ناقةٌ حلوبةٌ وإبل حلوبة للتي تحلب– وقوله: سوداً حال من قوله: اثنتان وأربعون– وذكر أن في إبلهم هذا العدد من الحلوبة السود ليخبر عن كثرتهم وكثرة إبلهم – وشبه سوادها بسواد قوافي الغراب وهي أواخر الريش من الجناح مما يلي الظهر سميت بذلك لخفائها– الأسحم : الأسود– وإنما خص الخوافي لأنها أسبط وأشد بريقاً وألين).

[30] ديوان عنترة محمد سعيد المولوي ص 188.(وقوله: أزمعت أي أجمعت وعزمت على، يقول إن كنت عزمت على الرحيل والفراق فقد زمت ركابكم أي شدت ووخطمت بالأزمة ، وعليكم بقية من الليل أي هذا أمر أبرمتموه وتقدمتم فيه بليل مظلم وإنما يعني أنهم فاجؤوه بالرحيل ولم يعلم به فذلك أشد عليه وأبعث لجزعهم).

[31] ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات د.مي يوسف خليف ص 32.

ولشّدَ ما يتداعى إحساسُ عنترة بالألم المُمضّ، عندما يجعل نفسه معادلاً موضوعياً لتلك الحشرة القميئة "الذباب"، التي ربما اشتق اسمه منها، فقد قيل: "واشتقاق عنترة إمّا ضربٌ من الذباب يقال له العَنْتَر والعُنْتُر"[32]، والعنتر في اللغة "الذباب الأزرق"[33]، يقول عنترة:[34]

1 . فتَرى الذُبابَ بها يُغنّي وحدَهُ هَزِجاً كفِعْلِ الشَّارِبِ المُترنِّمِ

2 . غَرِداً يسُنُّ ذِراعَهُ بِذارعِهِ فِعْل المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجْذَمِ

يختار عنترة أكثر الأشياء قرباً من ذاته، ينتقي أفضل ما يُوائم نفسه، فالذبابة حشرةٌ سوداء، ترتاد الأماكن وتصل إليها حيثما كانت، إن الصفات التي تتّصف بها الذبابة يحيلها عنترة إلى صفاتٍ لها مدلولات جمالية ، إنه يخلق من العدم وجوداً، عندما يجعل الذباب يحلق في تلك الروضة الغنّاء العامرة بأسباب الحياة والسرور، يحلق فرحاً، يغني وحده، لا يشاركه أحدٌ فرحته، فهو يتفرّدُ بتلك الروضة، ويتوحّد بها، وغناءُ الذباب يأتي (هزجاً كفعل الشارب المترنم)، صورة جميلة عندما يصف عنترة حال الذباب . وهو فرحٌ بوجوده في تلك الروضة الغناء الجميلة . بحال الشارب المنتشي فراح يغني، ويترنم بأعذب الألحان وأجملها، إن الذباب الذي تحدث عنه عنترة هو ذات عنترة المغتربة، فلونه الأسود ووجودُه –وحيداً– في تلك الروضة، التي هي عبلة المحبوبة، وتمتعه بها، أمران يعكسان رجْع الذاتِ المنكسرة داخل عنترة، كذلك فإن نفسية عنترة تظهر في هذه الأبيات "فالأنفةُ، والحريةُ، والتغريدُ، والترنيم، والهزج، والوضوح والرغبةُ في الحياة كلها جميعاً توحي بالتفاؤل والخير والفرح"[35]، وربما كان وجود الذباب لدى الشاعر الجاهلي يعني الحياة في رأي د. نوري القيسي. [36]

لقد أبدع عنترة في اختياره هذه الصورة، وهذا ما أجمع عليه النقاد والكتاب في تعليقاتهم على هذا التشبيه، قال ابن قتيبة فيه:"صورةٌ بِكْرٌ لم يسبقْه إليها أحدٌ، وهذا من أحسن التشبيه"[37]، وجاء في الصناعتين : "وما يعرف للمتقدم معنى شريف إلا نازعهُ فيه المتأخر وطلب الشركة فيه معه إلا بيتي عنترة، فإنه ما نوزعَ في هذا المعنى على جودته وقد رامه بعض المجيدين فافتضح"[38] وقال العسكري: "وقد ذكروا أن كل معنى للأوائل أخذه المتأخرون وتصرفوا فيه إلا قول عنترة في الذباب، فإنه لم يتعرض له ولو رامه من رامه لافتضح"[39]ووصف القيرواني قول عنترة في وصف الذباب بأنه: "أوحد فرد، ويتيمٌ فرد"[40] ويتابع قوله: ‹‹ ومن التشبيهات عقمٌ لم يسبق أصحابها إليها ولا تعدى أحدٌ بعدهم ››.

لقد انتقى عنترة أجود ما تحمله بيئته، ولا عجب في ذلك، فالإنسان ابن البيئة التي يعيش فيها، ويترعرعُ بين أحضانها وينهل من معينها، وعنترة استطاع أن يجعل صورة الذباب الكريهة صورةً قريبة محببة إلى النفوس، عندما أضفى عليها بعضاً من ذاته وروحهِ، إنه يؤنسن الأشياء، ويضفي عليها جزءاً من إنسانيته المرهفة الحسّاسة، وهو لا يكتفي بأنْسَنَةِ الأشياء ، بل يتعدى ذلك، عندما يخلع نفسه على تلك الأشياء، فتغدو الأشياء ذات عنترة، كما غدا الذباب وكما غدا

---

[32] الاشتقاق ابن دريد الأنباري ص 396. وانظر شرح القصائد الطوال الجاهليات للأنباري ص 294.

[33] خزانة الأدب للبغدادي ج1 ص 129.

[34] ديوان عنترة المولوي ص 197–198.(قوله فترى الذباب بها ، يصف أنها روضة كثيرة العشب مخصبة مكتملة النبت والذباب يألفها ويغني بها – والهزج : المتتابع الصوت– وقوله : كفعل الشارب شبه غناء الذباب بغناء الشارب، والمترنم الذي يترنم بالغناء أي يمد صوته ويرجعه– الغرد: الذي يمد في صوته ويطرب – وقوله : يسن أي يحدد ومنه سن السكين إذا أحدها وسن الثوب إذا صقله وأراد بالزناد الزند وهو العود الاعلى والزندة العود السفلى– والأجذم : المقطوع الكف ،ومعنى البيت انه شبه الذباب حين وقع في هذه الروضة فحك إحدى ذراعيه بالأخرى برجل مقطوع الكفين يوري زناداً فهو يمده بين ذراعيه إذ لم يكن له كفان يمره بينهما).

[35] أدب العرب في عصر الجاهلية د.حسين الحاج حسن ص 182.

[36] الطبيعة في الشعر الجاهلي د. نوري حمودي القيسي ص 222.

[37] الشعر والشعراء . ج1 ص 174.

[38] الشعر والشعراء ابن قتيبة ج1 ص 174.

[39] ديوان المعاني للعسكري ج2 ص 148.

[40] العمدة للقيرواني ج1 ص 504. وانظر الشعر والشعراء ابن قتيبة ج1 ص 174.

الغراب، وهذه هي مهمة الشاعر المجيد، "فهو يعمد إلى التشبيه ليستعين به لحْملِ عاطفتهِ إلينا في تمام قوتها وحرارتها"[41].

ونلمح صفة السواد . لدى عنترة . متمثلة بفرسانه، إذ يخلع عليهم صفة الفحم المتوقد، دلالة على شدتهم وقوتهم وبأسهم، يقول:[42]

1 . يَمشُونَ والمَاذِيُّ فَوْقَهمُ يَتَوقَّدون توَقُّدَ الفحمِ

2 . عَجِلَتْ بنو شَيْبَانَ مُدَّتَهُمْ والبُقْعُ أسْتَاهاً بنوَ لأَمِ

إنّ لون الفحم هو اللون الأسود، وهو في هذه الصورة مثارٌ للمدح والفخر والقوة (يتوقدون توقد الفحم)، بينما يغدو لون أعدائه . كما يصفه عنترة . لوناً أبقع دلالة على اللؤم والاحتقار والسخرية، يستعير عنترة من واقعه التراثي رمز الأبقع، ولطالما وصُفَ به الغراب،ن يقول:[43]

. ظَعَنَ الذينَ فِراقَهم أتَوَقَّعُ وجَرى بِبَيْنِهِمُ الغُرابُ الأبْقَعُ

يُحمل عنترة هذه الصورة فَيض غضبه، وفيض شعوره، فيصف فرسانه وصفاً مضمخاً بالقوة والتوقد والاشتعال والهيجان (يتوقدون توقد الفحم)، وكأن فرسانه جمْرٌ ملتهب، متقد، مشتعل، ولعل حُسن اختيار عنترة للفظة وانتقائهِ لها هو ما يجعلنا نتحسّس دلالتها ورمزيتها، فكلمتا (يتوقدون) و(توقد) يوحي اجتماع حروفهما (القاف والدال والواو والنون) وما تدل عليه القاف المجهورة، والدال الدالة على الدنو والاقتراب، بقوة الاشتعال وامتداد اللهب وتواصل الفعل واحتراقه، كما " تستحيل المقاطع الطويلة والقصيرة إلى زوايا عميقة في وجدان الشاعر تتجمع فيها كل أصوات الماضي وهموم الحاضر"[44]، إنه يبرع في تخيُّره اللفظة المعبرة عن الحدث المراد،ثم اختياره للفحم وما يرمز إليه من حلكة السواد واحتراقه،وانتقاؤه كذلك لكلمة (أبقع) يزيد الصورة مصداقية وقرباً من الأذهان والنفوس.

كما يبرز اللون الأسود في سخريته من عمرو بن أسود وقومه، الذي هدده، فأخذ عنترة يصف رماحهم بالتكسر دالاً على قدمها، ومضفياً عليها لون السواد الذي يلائم القديم، ويوافقه، يقول عنترة:[45]

. قَدْ أوْعَدوني بأرْماحٍ مُعَلَّبَةٍ سُودٍ لُقِطْنِ من الحُوْمانِ أخْلاقِ

هكذا يتناوب اللون الأسود عند عنترة، ويتأرجح في مخيلته بين شدٍّ إلى الوراء، حيث الواقع المرير المظلم (العبودية) ودفع إلى الأمام، نحو المستقبل المشرق المضيء الواعد بالحياة والأمل، وهو في شدّه ودفعه، وفي مدّه وجزره، يخلق في ذات عنترة جدلية التمسك بالحياة وإثبات الوجود.

لقد لوَّن عنترة في صوره، وكان اللون الأسود من مكونات تشابيهه، وكيف لا يكون كذلك وهو سبب عنائه في هذه الحياة، أليس هو العبد الأسود، والشاعر الغراب؟! أليست كنيته أبا المغلّس[46]؟! فكيف والحال هذه لا يحتل اللون الأسود النصيب الأكبر من تشابيهه وصوره،يقول:[47]

---

[41] أدب ال عرب في عصر الجاهية د.حسين الحاج حسن ص 183.

[42] ديوان عنترة المولوي ص 275–276.(الماذي: الصافي من الحديد الخالص، يعني الدروع البيض، وقوله: يتوقدون توقد الفحم أي لقاؤهم شديد لتوهج النار واستعارها– يقول استعجلت بنو شيبان مدة حياتهم حين تعرضوا لقتالنا وأصبنا منهم – وقوله : البقع استاهاً ، رماهم بالبرص في أستاههم – وبنو لأم: حي من طيىء).

[43] ديوان عنترة المولوي ص 262.(يقول: ارتحل الذين كنت أتوقع فراقهم – وقوله: وجرى ببينهم الغراب أي نعب فحتم بالفراق – والأبقع: الذي فيه سواد وبياض وإنما جعله أبقع لشدة سواده على الصدر، وقيل إنه صنف من الغربان).

[44] نظرية اللغة والجمال في النقد العربي د.تامر سلوم ص39.

[45] ديوان عنترة المولوي ص 286.(قوله : أوعدوني من الوعيد ، والمعلبة المسدودة بالعلباء وهي عصبة في العنق يعني أنها رماح قد خلقت وتكسرت فشدت بالعلباء، ووصفها بالسواد لقدمها وبلائها – وقوله لقطن من الحومان أي التقطن من هذا الموضع ولم تكن عندهم من سلب ولا شراء ، لأنهم ليسوا أهل حرب ولا غنى).

[46] المؤتلف والمختلف البغدادي ج3 ص 1722. وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص 260. وانظر فارس بن عبس للغرشي ص 36.

[47] ديوان عنترة محمد سعيد المولوي ص 307.(يقول : ما كان من الخيل أسود تخضب من دماء الجرحى ، حتى عاد أحمر).

. حتى رَأَيْتُ الخَيلَ بَعْدَ سَوَادِها حُمْرَ الجُلُودِ خُضِبْنَ منْ جَرْحَاها

يبرز عنترة في بيته اللون الأصلي للخيل؛ وهو لون السواد، واللون الأسود لونٌ متعارفٌ عليه في الخيل، يُعنى عنترة باختيار الألوان، فيأتي أبرزها لديه اللون الأسود، لماله من ارتداداتٍ نفسية عميقة تتجاوب وأصداء أعماقه، ارتداداتٌ بعيدةٌ تعود إلى أيام الطفولة والشباب، تلك الأيام التي لا تمحوها الأحداثُ من الذاكرة، هي ثابتةٌ متأصلة في ذاكرته وفي أعماقه، ثابتة كثبات اللون الأسود في صفته، "فاللون الأسود رمزٌ للثبات على صفة ما"[48]، لكنّ عنترة يتلاعب في هذا اللون فيجعله أحمر، لقد أصبحت جلود الخيل، بعد أن كانت سوداء، حمراء مخضّبة بدماء القتلى والجرحى من الأعداء، إنه يُكسب صورته هذه مزيداً من الواقعية لتبلغ مدى صدقها، ولتعمق إحساسنا وشعورنا ببطولة هذا الفارس المقدام، وهو . في الوقت نفسه . يحاول التلاعب بمصيره، فاللون الأسود الذي يعكس القتامة والحزن والموت في نفس عنترة، يحيله عنترة لوناً أحمر؛ لون الدم؛ لون القوة والنصر والحياة، هكذا يضفي عنترة على صورته رمزاً معنوياً، إذ لا يتوقف عند حدود المادي (الأسود والأحمر) من حيث كونهما لونين، بل يخلق رمزاً أسمى وأعظم، يتمثل بالخلود وإثبات الوجود والحياة.

يجعل عنترة من مصداقية كلامه وسيلة لكسب احترامنا وتقديرنا، وهو ما أراده عنترة تماماً، لقد أراد أن يحقق احترام قبيلته له، وحقق منيَته بالفعل عندما نقل لنا هذه الصورة الحية الصادقة المعبرة، يُعنى عنترة بالألوان، لأن اللون . طيلة حياته . ظل يؤرّقه ويعذبه، حتى إنه وضع حاجزاً بينه وبين الآخرين، ذكرت أحلام مستغانمي في روايتها: "سمعت مرةً مصمم أزياء شهيراً يجيب عن سرِّ لبسه الدائم للأسود قال:إنه لونٌ يضع حاجزاً بيني وبين الآخرين"[49]،

ولهذا نلحظ اعتناء عنترة بالألوان وخاصة اللون الأسود، ونتلمس ذلك في كثيرٍ من أشعاره، يقول:[50]

1 . وكَتيبةٍ لبَّستُها بكتَيبةٍ شَهْباءَ باسِلةٍ يُخافُ رَدَاهَا

2 . تدَارَكَ لا يَتَّقي نَفْسَهُ بأبْيَضَ كالقَبَسِ المُلْتهِبْ

3 . قد أَوْعَدوني بأَرْماحٍ مُعلَّبةٍ سُودٍ لُفِطْنَ من الحُومَان أَخْلاقِ

4 . كَمْ مِن فتىً فِيهِمْ أخي ثِقةٍ حرٍّ أغرَّ كغُرَّةِ الرِّئمِ

5 . لَيسُوا كأَقْوامٍ عَلِمتُهُمُ سُودِ الوجُوهِ كَمَعْدِنِ البُرْمِ

6 . قد أَطْعَنُ الطعنةَ النَّجْلاءَ عن عُرُضٍ تصْفرُّ كفُّ أخيها وهو مَنْزوفُ

7 . ظَعَنَ الذينَ فراقَهُمْ أتوقَّعُ وجرى ببينهمُ الغرابُ الأبْقَعُ

يستمد عنترة ألوانه المتعددة؛ من أسود ،وأبيض، وأحمر، وأصفر، وأشهب .... من واقع الحياة ؛ الحياة المتشابكة في دلالاتها ورموزها، فيغدو شعره مرآةً للواقعِ وصورةً له، هذا الواقع المتنوع المختلف في أجزائه، كذلك اللون في شعر عنترة، متعدِّدٌ، متناثرٌ، متنوع تنوع الواقع والحياة التي يعيشها، فعنترةُ " يستقي من الواقع وجوده ومادته ويأخذ منه صورة وهيئة"[51].

---

[48] مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية د.حسين جمعة ص 204.

[49] ذاكرة الجسد ص351.

[50] ديوان عنترة المولوي ص 303–294–286–276–271–262. وانظر الحماسة البصرية للبصري ج2 ص 342.(قوله وكتيبة لبستها بكتيبة أي غشيتها بمثلها، وجعلها شهباء لكثرة سلاحها المصقولة، والباسلة : الكريهة المنظر – والردى : الهلاك– وقوله تدارك : يعني ورد بن حابس، وقوله بأبيض يعني سيفا صقيلاً وشبهه بالقبس في بريقه ولمعانه – قوله أخي ثقة أي يوثق بما عنده من الخير والشجاعة – والأغر الأبيض ، والرئم الظبي الأبيض الخالص البياض ، ولم يرد بالغرة البياض الذي يكون في الوجه خاصة وإنما أراد جميع بياض الظبي – كمعدن البرم: أي وجوههم في السواد مثل موضع القدر من النار – وقوله : قد أطعن الطعنة النجلاء أي هذا من فعلي ودأبي والنجلاء الواسعة ،والعرض والاعتراض أي أعترض القرن فأطعنه – وقوله كف أخيها يعني صاحب الطعنة أي ينزف دمه فتصفر كفه وإنما خص الكف لأنها أسرع أعضاء الميت اصفراراً ، ولذلك قال الآخر : دويهية تصفر منها الأنامل).

[51] ديوان عنترة المولوي ص 116.

لقد فَقَدَ عنترة الغراب إحساسه بالجمال ، "فالجميل هو الحياة ، هو ذلك الكائن الذي نرى فيه الحياة كما نتصورها والجميل هو ذلك الشيء الذي يعبر عن الحياة أو يذكرنا بالحياة"[52]، فَقَد أهم مقومات الجمال، وهو لونه ، ولذلك فَقَد إحْساسَهُ بالحب ، بالفرح ، بالإشراق ، بالحياة. عبَّر عنترة . بصدق . عن التشققات التي في نفسهِ ، وعن العذاب الذي يعانيه في صورته المهزوزة في أَعيُنِ الناسِ من حولهِ ، ولذلك جاءت أشعاره ممتلئةً قيماً فنية واجتماعية، امتلاء نفسهِ العظيمة .

المراجع:

.....

1- أدب العرب في عصر الجاهلية حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت لبنان – ط1(1404هـ- 1984 م).

2- الاشتقاق ابن دريد الأنباري تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون منشورات مكتبة المثنى- بغداد- العراق- ط2- (1399هـ- 1979 م).

3- الأعلام خير الدين الزركلي ط2 . بلا تاريخ.

4- الأغاني أبو الفرج الأصفهاني تحقيق عبد الستار أحمد فراج دار الثقافة – بيروت- (1379هـ- 1960 م).

5- الانتماء في الشعر الجاهلي، د. فاروق إسليم منشورات اتحاد الكتاب العرب- مطبعة اتحاد الكتاب العرب- دمشق- 1998 م.

6- تاج العروس محمد مرتضى الحسيني الزبيدي تحقيق د.عبد الكريم العزباوي مراجعة د. إبراهيم السامرائي وعبد الستار أحمد فراج وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت- مطبعة حكومة الكويت- (1386هـ - 1967م).

7- الجمال والجلال د. فؤاد مرعي دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر- ط1- 1991م.

8- الحبشة حسن محمد جوهر مطبعة مصر- لجنة البيان العربي- القاهرة- ط1- بلا تاريخ.

9- الحماسة البصرية صدر الدين علي بن الحسن البصري تحقيق: مختار الدين أحمد عالم الكتب – المزرعة- بناية الإيمان- بيروت- ط3- (1403هـ- 1983م).

10- حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء أبو محمد عبدالله بن محمد الزوزني منشورات وزارة الإعلام – العراق – سلسلة كتب التراث- 1973م.

11- الحيوان الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ج3) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون دار الجيل- بيروت-(1416هـ- 1996م).

12- خزانة الأدب عبد القادر بن عمر البغدادي دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة- بلا تاريخ.

13- ديوان عنترة بدر الدين حاضري ومحمد حمامي دار الشرق العربي- بيروت- لبنان-ط1- (1412هـ- 1992م).

14- ديوان عنترة محمد سعيد المولوي المكتب الإسلامي – جامعة القاهرة- 1964م.

15- ديوان المعاني أبو هلال العسكريّ مكتبة القدسي- القاهرة – بلا تاريخ.

16- ذاكرة الجسد أحلام مستغانمي.

17- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون دار المعارف – مصر – ط2-بلا تاريخ.

[52] الجمال والجلال د. فؤاد مرعي ص 71.

18- شرح المعلقات السبع أبو عبد الله الحسين أحمد بن الحسن الزوزني نشر وتوزيع المكتبة الأموية – دمشق- (1383هـ - 1963م).
19-الشعراء الفرسان بطرس البستاني،منشورات دار المكشوف – ط1 – 1944م .
20- الشعر الجاهلي د. محمد النويهي الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة – دون تاريخ.
21- الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي د. عفيف عبد الرحمن دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت-لبنان- ط1-(1404هـ- 1984م).
22- الشعر والشعراء أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة دار الثقافة-بيروت- لبنان – ط4- (1400هـ-1980م).
23- الطبيعة في الشعر الجاهلي د. نوري حمودي القيسي عالم الكتب – مكتبة النهضة العربية – بيروت- ط2- (1404هـ - 1984م).
24- ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات د. مي خليف دار الثقافة للنشر والتوزيع – الفجالة – بلا تاريخ.
25- العمدة في محاسن الشعر وآدابه أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني دار المعرفة – بيروت – لبنان- ط1- (1408هـ - 1988م) .
26- عيار الشعر أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي تحقيق د.عبد العزيز بن ناصر المانع دار العلوم للطباعة والنشر- الرياض – السعودية (1405هـ-1985م).
27- فارس بني عبس حسن عبد الله القرشي دار المعارف – مصر – مكتبة الدراسات الأدبية – ط2- بلا تاريخ .
28- لسان العرب ابن منظور المجلد الثاني – مادة (غرب).
29- المؤتلف والمختلف أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي دار الغرب الإسلامي -بيروت – لبنان-ط1- (1406هـ- 1986م).
30-المحبر ابن حبيب رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري – تصحيح الدكتورة إليزة ليختن شتيتر،منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر-بيروت- بلا تاريخ.
31- مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية د.حسين جمعة،شارع الحمراء_ دمشق- الحجاز ط1 1990م.
32-المعاني الكبير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري دار الكتب العلمية – بيروت – لبنلن – ط1 – (1405هـ - 1984م).
33- معجم الأعلام بسام عبد الوهاب الجابي الجفاف والجابي للطباعة والنشر – ط1- (1407هـ - 1987م).
34- موسوعة أساطير العرب د. محمد عجينة دار الفارابي – بيروت – لبنان – ط1 – 1994م.
35- نظرية اللغة والجمال في النقد العربي د. تامر سلوم .